HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة (التصنيف: NSP)
معامل التأثير العربي للعام 2020 = 0.44

عنوان البحث

الأوبئة وأثرها على التطورات السياسية في العراق

شواهد تاريخية

ا. م. د. سؤدد كاظم مهدي[1]

[1] مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية، العراق

تاريخ النشر: 2021/08/01م تاريخ القبول: 2021/07/18م

المستخلص

يشكل موضوع الأوبئة بأبعاده المختلفة من الظواهر غير الجديدة التي اكتسحت العراق عبر مراحل تاريخية مختلفة، وإرتبط جذورها بشكل وثيق بالهجمات الوبائية المتكررة التي حدثت كالطاعون والكوليرا والجدري وأمراض إنتقالية آخرى، وكان لها انعكاساتها السلبية المؤثرة على واقع الحياة الصحية والاقتصادية والانشطة الحياتية بكافة مجالاتها.

تناول موضوع البحث احداث مهمة في مراحل مختلفة من تاريخ العراق، من اجل توضيح دور العامل الوبائي في تطور العراق السياسي واستعراض شواهد تاريخية لذلك المنظور عبر منهج علمي يهدف دراسة قضية الاوبئة والجوائح كأحد العوامل المؤثرة في عملية التحقيب التاريخي منذ بداية التاريخ الاسلامي ومرورا بالتاريخ الحديث والمعاصر.

الكلمات المفتاحية: الاوبئة، العراق، تاريخ.

RESEARCH ARTICLE

EPIDEMICS AND THEIR IMPACT ON POLITICAL DEVELOPMENTS IN IRAQ
Historical Evidence

SUDAD KADUM MAHDI[1]

[1] Al-Mustansiriya Center for Arab and International Studies, Mustansiriya University, Iraq. Morocco

Published at 01/08/2021 **Accepted at 18/07/2021**

Abstract

The subject of epidemics with its various dimensions is one of the non-new phenomena that swept Iraq through different historical stages, and its roots are closely linked to the repeated epidemic attacks that occurred such as plague, cholera, smallpox and other communicable diseases, and had negative repercussions affecting the reality of health, economic life and life activities in all its fields.

The research raises the problem of the extent to which the historical survey of some epidemiological cases is able to clarify the facts related to the political events that afflicted Iraq, as well as the losses that paralyze the population, social and economic movement, and the nature and paths of that relationship in light of the various political regimes that followed the rule of Iraq, until it became the most exposed to epidemics.

Key Words: epidemics. Iraq. History

المقدمة

يشكل موضوع الأوبئة بابعاده المختلفة من الظواهر غير الجديدة التي أكتسحت العراق عبر مراحل تاريخية مختلفة ، وإرتبط جذورها بشكل وثيق بالهجمات الوبائية المتكررة التي حدثت كالطاعون والكوليرا والجدري وأمراض إنتقالية آخرى ، وكان لها انعكاساتها السلبية المؤثرة على واقع الحياة الصحية والاقتصادية والانشطة الحياتية بكافة مجالاتها.

يكشف تاريخ الاوبئة وبغض النظر عن حدود تلك الدولة السياسي في تلك المرحلة التاريخية ، ان الاوبئة والجوائح بشكل عام تشكل مقوما واضحا من مقومات التغيير ، حتى يرى بعض الباحثين بهذا الشان ان " امبراطورية الاوبئة... هندسة العالم" بحكم حجم التحولات في المعادلات الاقتصادية و الديوموغرافية والسياسية والصحية المؤثرة على تلك البيئة الطبيعية او ذاك الكيان او المكون ، وهو ما توضح جليا في معادلة التفاعل السياسي التي جرت في تاريخ الدولة الاموية (41–132 هـ) في العراق وتغيير الولاة وتسريع عملية سقوط الدولة عن عمر يتجاوز ال (90)عاما كما شكلت الاوبئة بعدا بارزا في عملية سقوط حكم المماليك في العراق عام 1831 ، وفي موقف مدينة الكاظمية من المعاهدة العراقية – البريطانية عام 1922.

- **اهمية البحث**

تتجلى اهمية البحث في تناول احداث مهمة في مراحل مختلفة من تاريخ العراق ، بقدر تعلق الامر بموضوع الدراسة ، من اجل توضيح دور العامل الوبائي في تطور العراق السياسي واستعراض شواهد تاريخية لذلك المنظور عبر منهج علمي يهدف دراسة قضية الاوبئة والجوائح كاحد العوامل المؤثرة في عملية التحقيب التاريخي منذ بداية التاريخ الاسلامي ومرورا بالتاريخ الحديث والمعاصر ،

- **اشكالية البحث .**

يطرح البحث اشكالية مدى قدرة طرح المسح التاريخي لبعض الحالات الوبائية في توضيح الحقائق المتعلقة بالاحداث السياسية التي عصفت بالعراق فضلا عن الخسائر التي تشل الحركة السكانية والاجتماعية والاقتصادية ، وطبيعة ومسارات تلك العلاقة في ظل انظمة سياسية متباينة توالت على حكم العراق ،حتى بات الاكثر تعرضا للاوبئة بين دول عربية واسلامية اخرى.

- **هيكلية البحث .**

ولغرض تنظيم العملية البحثية سنقسم الدراسة إلى ثلاثة مباحث نخصص الاول منها للبحث في الاوبئة والجوائح المعنى اللغوي والمدلول القراني والمذهبي ، اما الثاني فنخصصه لبيان اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في العصر الاموي. والثالث عن اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في العهد العثماني (1534– 1918) .وياتي المبحث الاخير حول اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في مرحلة الاحتلال البريطاني (1914–1918). ثم نختم بحثنا هذا بأهم الاستنتاجات والمقترحات التي توصلنا إليها

اولاً : الاوبئة والجوائح ... المعنى اللغوي والمدلول القراني والمذهبي .

يعود المعنى اللغوي لكلمة مرض في معاجم اللغة العربية الى السقم وهو نقيض الصحة في البدن, كما ياتي معنى المرض بمعنى الشك , في قوله تعالى " **في قلوبهم مرض** " وفي تكملة الاية " **فزادهم الله مرضاً** " [1] كما يرى اخرون ان اصل المرض هو النقصان والانحراف في كل من الانسان والحيوان [2].

اما الاوبئة تعود الى كلمة (**وبأ**) وهو كل مرض عام , كما يذكر ذلك ابن منظور في لسان العرب وجمعها اوبية وفي قراءة اخرى (**اوباء**) مصدرها (**بوأت وباء وباءة**) [3]، وفي حديث للامام علي (عليه السلام) قوله " **أمر منها جانب تاوباً** " أي صار وبيئاً , وبمعنى اخر يذكر استوبأ الارصف , استرحمها ووجدها وبئةِ [4].

تعود **الجائحة** الى كلمة الجوح التي تعني يجتاج كل شيء والجمع مجاوح كما ورد في معجم القاموس الوسيط , وغالباً ما تجمع ب(**جُوح**),التي تعود الى الفعل اجتاح , اجتح , اجتياحاً , فهو مجتاح (كما اجتاحت الجيوش البلاد) وتعني الهلاك والاستئصال, كما يذكر البعض اللغوين تفسيراً عن الشدة المجتاحة بـ " الجائحة " **سنة جائحة جدبة** " وفي الحديث الشريف " **اعاذكم الله من جوح الدهر** "[5]

تتباين ايات القران الكريم في ذكر الامراض والجوائح التي تصيب الانسان والطبيعة , حيث وردت (416) اية قرانية تشير في مجملها الى قوانين الله على عباده في هذا المجال , لاجل تحقيق غايات ووظائف معينة ومتباينة في الوقت ذاته , وفي حالات اخرى تأتي سنة الله في اصابة عباده بامراض مختلفة كنوع من الابتلاء الرباني لمعرفة مدى قوة ايمان عبده وصبره على الاذى , كما هو حال النبي ايوب عليه السلام في سورة ص الاية 44" **انا وجدناه صابراً , نعم العبد انه اواب**" .

اما الجائحة او الاوبئة فغالباً ما ترتبط بتحولات عديدة وتغيرات في الانظمة الاجتماعية والسياسية هذا الى جانب تأثيرها الاقتصادي على تلك البلدان , ويرى من خلال كتب التفاسير والاحاديث النبوية ان غالبا ما يفهم من تلك الجوائح هو اشارة الى دخول مرحلة عقوبه الهية بسبب الانشغال بالمستقبل والخصوصية الفردية وما يرافقها من ظلم وجور على المستضعفين في الارض , حتى تصبح تصورات حياة الناس حينما تحتاجهم تلك المتغيرات العديدة في مداخل التاريخ ورهنا للذكريات , وذلك لاجل تقديم نظام اصلح لنجاح الامم وملتقيا مع الحقوق الربانية الحكيمة الهادفة الى العدالة والرحمة بين البشر. [6]

وهناك ايات قرانية عديدة في هذا الصدد تشير الى الصورة التي تبرز مدى غرور الانسان في قدرته على تسير مقدرات الارض بعيداً عن ارادة الخالق , كما ورد في قوله تعالى في الاية الكريمة من سورة يونس الاية 24 :

" وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا

فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل

الايات لقوم يتفكرون " .

يعد موضوع تأويل الاوبئة في فكر المذاهب الاسلامية حلقة من حلقات التفاعل مع رمزية الاوبئة والجوائح عبر

تفسيرات قرانية ونبوءات دينية ومذهبية مختلفة ذلك عبر التعرض في دلالة جمعية في الاحاديث النبوية او المذاهب المختلفة , فقد ارتبطت الاحاديث النبوية في تفسير الجوائح حول جانبين الاول بانه اية من ايات الله يسلطها الله علي عباده استناداً الى التفسير القراني للايات التسعة التي اظهرها الله على فرعون وقومه وكان (الرجز) أي الطاعون هو العذاب الذي سلط عليهم عندما مات (70) الف شخص في يوم واحد كما يذكر بعض المؤرخون والمفسرون[7] كما جاء ذلك في سورة الاعراف اية 134

اما الجانب الثاني من الرؤية النبوية فكان في طرح بعض الصور والمشاهدات الايجابية للجوائح والاوبئة التي تأتي في احيان كثيرة بصيغة الشهادة وفي الاحاديث النبوية الشريفة التالية عندما قال رسول الله في صحيح مسلم " **الطاعون شهادة لكل مسلم**" , اما في مخيلة الفكر المذهب اهل الجماعة التقليدي جاء العلاج مع رمزية الاوبئة من خلال الاحادث النبوية وطرح ذلك في الثقافة الاسلامية تعد واقعة عمواس التي ذهب فيها من الصحابة كلا من معاذ بن جبله , وعبيد الله بن الجراح وغيرهم فكان هذا الحدث طريقاً نموذجياً للوصول الى الجنة كما هو حال الجهاد في سبيل الله. [8]

اما فكر مذهب الاثنى عشر فقد ارتبطت رمزية الاوبئة في تفسيراتهم وادبياتهم استناداّ الى روايات اهل بيت النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم في كونه من ايات اخر الزمان ومن ايات ظهور الامام المهدي بعد غيبته منذ (329 هـ) كما يذكر الامام محمد الباقر وهو الامام السادس في ائمة الاثني عشر قائلاً : " **لا يقوم القائم الا على خوف شديد وزلزال وطاعون قبل ذلك** " [9]. كما يربط ذلك الفكر الامراض في التفسير التوفيقي الذي جمع التفسيرات الطبية مع الاثار النبوية ذات الطابع العيني كما يربط العلاج الطبي مع ثوابت ورموز مذهب اهل الجماعة .

ثانيا – اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في العصر الاموي.

عرف العراق في ظل الدولة الاسلامية في العهد الاموي (41– 132 هـ) وتحديداً منذ العام (64–65هـ) موجات وبائية عديدة وشديدة . ولم تتوقف تلك الطواعين والاوبئة خلال حكم الدولة الاموية ، كما يذكر ذلك المؤرخ ابن حجر العسقلاني في " **كتابه بذل الماعون في فضل الطاعون** " . بل ان احد الباحثين يتتبع هذا الموضع في كتاب عن الطاعون في العصر الاموي وجد فيه ان (20) طاعوناً تعرضت له الدولة الاموية خلال مدة حكمها أي بمعدل كل (4) سنوات ونصف من عمر الدولة [10] , وهو ما ترتب عليه ظهور العوامل المساعدة في تعجيل نهاية الدولة الاموية ونجاح الثورة العباسية وقيام دولتهم عام 132 هـ. وكانت بالشكل الاتي :

– تأثر الطبقة السياسية الحاكمة للعراق بالاوبئة عندما تعرض ابرز شخصياتها للامراض الفتاكة وهو ما اثر بشكل وباخر في مسالة وجود بقاء الدولة، فقد توفي في الطاعون كل من المغيره بن شعبه والي الكوفة (50 هـ) وولي العهد ايوب بن سفيان عبد الملك ت(96هـ) وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز وغيرهم [11].

– نهاية ثورة عبد الله بن الزبير واخيه مصعب بن الزبير في مدينة البصرة بسبب تفشي المرض في المدينة وهو ما ادى ضعف المقاومة السياسية للحكم الاموي في العراق في مرحلة ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز

(64-73 هـ) [12] .

- تغيير الخريطة الديموغرافية لسكان المدن والقرى , فقد تحول سكان العراق خاصة المناطق الزراعية في الجنوب الى الرعي بعد ان انتشروا في المناطق الصحراوية لنقاء هوائها , كما ترك سكان المدن حواضرهم هذا بالرغم من محاولات الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق لاعادتهم بالقوة الى مساكنهم ولم تثني تلك الخطوة عن نتيجة ما دفع الوالي الى الاستعانة بالزنوج للعمل في ميناء البصرة وبعض المكونات الدينية الاخرى كالمسيحين واليهود في العمل كجنود في الجيش الاموي في العراق [13] ,

- تدهور الاوضاع الاقتصادية للدولة. انعكست الظروف الصحية والاجتماعية سلباً على الموارد الاقتصادية بشكل مباشر على الزراعة فقد تراجعت محاصيل العراق في عهد الوالي الحجاج بن يوسف الثقافي بنسبه 60 %. [14]

ثالثا - اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في العهد العثماني (1534- 1918) .

شهد العراق تحت سيطرة الدولة العثمانية (1534-1918) موجات وبائية عديدة ومتواصلة، حيث تشير دراسة اكاديمية اعدت عن الامراض التي اجتاحت العراق خلال الحكم العثماني ما يلي :

- **القرن السابع عشر**. أنتشر الطاعون في بغداد وتسبب بضحايا كثيُرة في 1619، 1635، 1638.
- **القرن الثامن عشر** . تكرر ظهوره في الاعوام 1718، 1737، 1739 في بغداد والنجف والموصل بحيث كانت ضحاياه هناك (100) شخص يوميا.
- **القرن التاسع عشر**. ظهر في السنوات 1801، 1804، 1820 وكان عدد المتوفين بسبب تلك الجائحة في البصرة وحدها (70) الف شخص. وفي بغداد كتب غروفر وهو أحد الاباء في الارساليات التبشيرية في العراق قائلا :-

" في اليوم العاشر من شهر نيسان (1831م) مر الطاعون بالجانب الشرقي من المدينة وسجل (1200) وفي اليوم التالي (1400) ثم استقر عدد الوفيات على (1000) يوميا فاجهز هذا الوباء على ثلثي سكان بغداد، كما حصل في الحلة ... كما أنزل ضربة قاصمة بقوة البصرة اذ لم يبقى فيها سوى (5-6 آلاف نسمة) ." [15]

اثرت مجمل الخسائر البشرية التاتجة عن الوباء كما ورد في اعلاه وانعكاسها على القوة الانتاجية والموارد البشرية في البلاد اثناء الموجة الوبائية في العام 1830- 1831 ، بشكل كبير في معادلة التفاعل السياسي وتغيير طبيعة النظام السياسي القائم في تلك المرحلة التاريخية والتوجه نحو تعجيل نهاية حكم المماليك في العراق (1750-1831) ، حين امر السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839) الذي توفي بمرض السل فيما بعد [16] ، بتوجيه حملة عسكرية بقيادة علي رضا باشا اللاز والي حلب نحو بغداد في عام 1830 تكون مهمتها عزل الوالي داود باشا والقضاء على حكم المماليك في العراق [17].

بادر القائد علي رضا باشا الى إعداد جيش كبير من اجل الهجوم على بغداد تنفيذا للامر السلطاني المذكور

، الذي تحرك من مدينة حلب في بداية شهر شباط عام 1831 ، وفي اثناء ذلك تعرضت مدينة بغداد الى موجة وبائية قاسية في أواخر شهر آذار من العام نفسه ، حيث بدأ مرض الطاعون بالانتشار في بغداد الذي " **أفسد ظهور هذا المرض كل الخطط التي اعدها داود باشا لمقاومة الجيش العثماني** "كما يذكر ذلك المؤرخون بهذا الصدد [18] ، حيث كان الوباء كارثة ديموغرافية مروعة كما تشير بعض المصادر عن تلك الهجمة الوبائية ، اذ كان من مجموع عدد سكان بغداد البالغ آنذاك (150) الف نسمة قضى الطاعون تقريباً على (100) الف شخص. [19]

جاءت نتائج المعركة بعد حصار القوات العثمانية لمدينة بغداد الى تراجع قوات المماليك التي لم تجد الدعم اللوجستي المطلوب من المدينة ، وعليه تم الاتفاق بين الطرفين بعد استسلام قوات المماليك الى عزل الوالي داود باشا عن الحكم ومغادرة البلاد ودخول الجيش بغداد في 14 أيلول عام 1831 ، بعد ان اصبح علي رضا باشا واليا على ولاية بغداد في الاعوام (1831 – 1842) الذي توجه نحو إحكام سيطرة قواته ووضع الخطط اللازمة للقضاء على حكم المماليك بشكل كامل . و يمكن القول كان إنتشار مرض الطاعون في بغداد عام 1831 من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى عدم تمكن الوالي داود باشا من مقاومة الجيش العثماني بعد ان ساعدت الظروف الصعبة التي عانى منها العراقيون ومعاناتهم من مرض الطاعون والفيضان والمجاعة وفقدان الامن دور في بداية مرحلة تاريخية جديدة من الحكم العثماني . [20]

كان عدم الاستقرار السياسي وسوء الإدارة وضعف الامكانيات المادية فضلا عن ضعف الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، قد أدى إلى غياب خطة للتعامل مع مرحلة ما قبل ظهور الوباء وضعف الإجراءات لمرحلة ما بعد ظهور الوباء ما جعل الوباء يتفشى في مدن العراق في أواخر العهد العثماني. بسبب التغيير السريع لولاة العراق حيث حكم بغداد (31) والياً للمدة من عام (1831–1901) نتيجة للمؤامرات بين الولاة أنفسهم ، في وقت انشغلت الحكومة العثمانية بقمع العشائر من اجل جمع الضرائب والتجنيد العسكري مقابل أهمالهم الجوانب الآخرى للحياة ومن ضمنها قطاع الصحة العامة . ما كان يؤشر الى إندلاع خمسة تمردات عشائرية توزعت في أرجاء مختلفة من العراق في المدة 1858 – 1871 " في الفرات الأوسط ، والناصرية ، وبغداد ، والموصل ، والبصرة ، فضلا عن ذلك واكب إنتشار مرض الطاعون في مدينة بغداد إختلال السيطرة والقانون والنظام في المدينة ما أدى إلى ظهور عدد من العصابات في بغداد . [21]

هذا علما ان اجراءات الحجر التي قامت فيها السلطات العثمانية كانت احيانا تاخذ منحى سياسي تبعا للعلاقات بين الدولة العثمانية والحكومات الاجنبية هذا على الرغم من الضعف الحاصل بالاجراءات الصحية المحدودة جدا لدرجه انه كان لا يوجد سوى (10) اطباء و(6) من الصيادلة وبعض المستشفيات المتهالكة التي لا تزيد سعتها عن (20) سرير .[22] في ظل انتشار مرض الكوليرا عام 1893 الذي كان شديد الوطئة وسريع الانتشار في ولايات عديدة لاسيما في مدينة البصرة في زمن الوالي رفيق باشا ، الذي كان له دور في تعجيل سقوط الدولة العثمانية في العراق هذا الى جانب عوامل اساسية سياسية وادارية وعسكرية التي سرعت في عملية احتلال القوات البريطانية ولاية البصرة في تشرين الثاني 1914 ,

خامسا – **اثر الاوبئة على التطورات السياسية في العراق في مرحلة الاحتلال البريطاني (1914–1918).**

ادت احداث الحرب العالمية الاولى (1914–1918) باثارها السياسية وتداعياتها العسكرية على مجمل الاوضاع في العراق الذي كان احد الاقاليم التابعة للدولة العثمانية ، وكان منها القطاع الصحي الذي بدوره ساهم الى جانب عوامل اخرى في تطور الاحداث السياسية في تلك المرحلة التاريخية ، عندما نقل الجنود والنازحون امراض عديدة نتيجة سوء الاحوال التي كانوا فيها ، وكانت معركة سلمان باك بين القوات العثمانية والقوات البريطانية في تشرين الثاني 1915 مثالا بارزا على ذلك عندما بدأت الامراض انتشارها بين صفوف المقاتلين ومن ثم لتنتشر الى مدن عراقية عديدة منها بغداد . [23]

كما حملت سفن الامدادات والتجهيزات البريطانية الى مدينة البصرة امراضا لم تكن معروفة قبل الحرب العالمية الاولى وكان منها مرض التهاب السحايا الذي سجلت المدينة اصابات عديدة جراء المرض [24] ، كما حمل النازحون من (مذابح الارمن) خلال سنوات الحرب العالمية الاولى الى مدينة الموصل امراض عديدة نتيجة سوء الاحوال التي كانوا فيها وهو ما ادى الى ان تتعرض المدينة في عام 1917 الى مجاعة يعدها الباحثون من اكبر المجاعات في تاريخ المدينة التي بدورها ادت الى انتشار امراض جديدة كالديفوس والانفلونزا الى جانب الكوليرا التي راح ضحيتها قرابة (10) الاف من السكان والمهاجرين . [25]

دخلت القوات البريطانية البصرة في تشرين الثاني 1914 بدون مقاومة تذكر كما هو الحال بالنسبة الى بغداد التي دخلها الجنرال البريطاني ستانلي مودStanley Maude (1864—1917) قائد القوات البريطانية في 11 آذار 1917 ، أتخذ البريطانيون خلال مراحل الاحتلال الاولى أسلوباً يعتمد على التطمين المبني على الود أتجاه العرب والمسلمين. ونتيجة للوضع الجديد الذي حصل بعد سيطرة القوات البريطانية المحتلة على مدينة بغداد أصدرت وزارة الخارجية البريطانية اوامرها الى الجنرال مود بأن يعلن للعراقيين إن القوات البريطانية جاءت الى العراق محررة وليست فاتحة. وقد أُعدَّ بيان من قبل السير مارك سايكس (MARK SAYX) [26] . وتم ارساله من لندن الى بغداد. وعرف الجنرال مود بهذا البيان الذي جاء فيه:

" يا أهالي بغداد.. أنني باسم جلالة ملكي المعظم وباسم شعوبه التي يحكمها اوجه اليكم الخطاب الآتي: الغرض من معاركنا الحربية دحر العدو واخراجه من هذه الاصقاع واتماماً لهذه المهمة ... إلا إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين بل بمنزلة محررين " . [27]

رحبت الطائفة اليهودية بالاحتلال البريطاني للعراق باعتباره مرحلة جوهرية في تاريخ الطائفة الدينية والاقتصادية والثقافية ومن اجل تقديم الشكر لقادة القوات اعد كبار الدين وتجار ومثقفي الطائفة حفلة عشاء في مدرسة الاليانس حضرها القائد مود مساء يوم 14 تشرين الثاني من عام 1917 ، وتذكر المصادر في صدد ذلك ان مود قد " **شرب قهوة ممزوجة بالحليب البارد غير المغلي، وتمرض صباح اليوم التالي حيث شعر بتوعك صحته، وتبين انه قد أصيب بداء الكوليرا**" وأدى ذلك إلى وفاته في 18 تشرين الثاني 1917بمرض الكوليرا [28] الذي كان منتشراً في بغداد آنذاك . الذي فتك بدوره مدن عراقية عديدة بين عامي 1916، 1917 حتى سقط في الموصل وحدها (10) الاف ضحية [29].

عرف الجنرال مود خلال قيادته للادارة العسكرية البريطانية بعد احتلال بغداد بالمركزية والفردية في ادارة الامور العسكرية والسياسية معا ، وهو ما اثر في ظهور خلاف بين الجنرال مود والحاكم السياسي للحملة البريطانية برسي كوكس في تلك المرحلة التاريخية ، ساهمت وفاة ستانلي مود وتعيين الجنرال المر هولدين بدلا منه وسيطرت القوات البريطانية على معظم الاراضي العراقية ونهاية الحرب الى تقدم الادارة السياسية على القيادة العسكرية للحملة البريطانية في ادارة العراق حيث تم تعيين يرسي كوكس بمنصب الحاكم المدني العام للعراق في كانون الثاني 1918[30]. لتبدا مرحلة جديدة من مراحل السياسة البريطانية في العراق بعد نهاية الحرب العالمية الاولى وعقد هدنة مدروس مع الدولة العثمانية في 30 تشرين الثاني 1918 وهي مرحلة الاعداد لتأسيس الدولة العراقية الحديثة.

كانت العناية بالصحة العامة ونظافة المدن من ضمن اولويات الحملة العسكرية البريطانية لاحتلال العراق التي تحددت وجهة النظر العسكرية بضرورة تامين وجود واحتياجات القوات العسكرية في مواقع بعيدة عن الاوبئة , ولذلك تم فتح مركز صحي بريطاني في مدينة البصرة بعد الاحتلال مباشره والعمارة والناصرية ، كما اتخذ الوكلاء السياسيين الخطوات اللازمة لتأمين نظافة المدينة كما تذكر المس بل، هذا وقد تقبل الناس ويشكل لافتا للنظر التطعيم وسائر الاجراءات المتخذة ضد الطاعون منذ عام 1914 ، وتذكر المس بل السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني

" ان العام 1919 شهد اقبالا واسعا من الناس نحو التلقيح

ضد الامراض المختلفة حتى تجاوز ال (30 الف)

شخصا في مدة زمنية محدودة " [31] .

من الجوانب التي تحسب لصالح السياسة الاستعمارية البريطانية للعراق هو جانب الخدمة الصحية للسكان المحليين مقارنة مع دوائر صحة الدولة العثمانية، حيث حصل تقدم سريع في شؤن الصحة العامة وعدد الاسرة والمراكز الصحية من مستشفيات ومستوصفات في بغداد والبصرة والموصل في المدة ما بين 1914–1920 ، وربما التغيير الاكبر قد حصل في النواحي الاخرى من البلاد، اذ كانت المراكز الصحية في المناطق البعيدة شيء نادر في العهد العثماني ولم يكن الاحتياجات الصحية في القرى وجود يذكر [32].

اشرف على تأسيس المؤسسة الصحية الملكية كما كانت تسمى بذلك كادر طبي عسكري يرتبط برتيه الى صفوف الحملة العسكرية على العراق، كانت ادارة المستوصف يشرف عليها طبيب جراح بريطاني عسكري يساعده جراح هندي فضلا عن تشكيلة من الاطباء المحليين الذين كان اغلبهم من الارمن والاطباء الاتراك الذين اكملوا دراستهم في استانبول وبيروت هذا على الرغم من قلة عددهم آنذاك، وفي احصائية لتقرير بريطاني سنوي صادر عام 1919 يشير الى انه تم تشكيل (50) مستشفى ملكي ومستوصف بشرف على ثلثاها موظفون مدنيون و(9) منها يشرف عليها اطباء عسكريون [33].

في يوم ٢٣ آب ١٩٢١ توج الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكا على العراق (1921–1933)، ليعلن تأسيس الدولة العراقية الحديثة على أسس دستورية ديمقراطية ، وعلى غرار النظام الملكي في بريطانيا ، وليعلن

في الوقت نفسه عن نجاح السياسة الانتدابية بعد أن اجتاحت البلاد ثورة العشرين في 30 حزيران 1920 التي كانت تمثل نواة الحركة الوطنية والقومية المتصاعدة في العراق المناهضة لسياسة الحكم المباشر وأثارها على الواقع الاقتصادي والسياسي فسرعت بدورها عجلة الإجراءات البريطانية حول تحديد شكل الحكم في العراق وتأسيس حكومة وطنية مؤقتة تكون مهمتها الانتقال بالعراق إلى حكومة دستورية ديمقراطية خاضعة للقانون والوصاية البريطانية. وكان من ابرز مهام تلك الحكومة التي كانت تحت اشراف المندوب السامي البريطاني ، هو سن دستور للبلاد واجراء الانتخابات لتشكيل مجلس تاسيسى وسن دستور للبلاد [34] .

استمرت المعارضة الوطنية للحكم البريطاني تجاه سياسة الانتداب البريطاني لاسيما في المناطق التي شهدت الثورة وبالتحديد المناطق الوسطى والجنوبية ، حيث استمر قادة الثورة في اعلانهم معارضة الحكم البريطاني بكل اشكاله واصدار الفتاوى الشرعية التي تحرم المشاركة في الدوائر البريطانية على اختلاف مراتبها سواء على صعيد صنع القرار السياسي او الخدمي ، ولم يكتفي علماء الدين بذلك انما تم تحريم المشاركة في الانتخابات المحلية استعدادا لسن مجلس تاسيسي للبلاد في عام 1922 وسن قانون للبلاد كما كان يطلق عليه (تشريع دستور جديد) ، حيث اصدر العالم الديني محمد الخالصي في مدينة الكاظمية المقدسة فتوى بذلك وتبنى قادة المعارضة مقاطعة الانتخابات والتوجه تحو غلق مدينة الكاظمية بوجه القوات البريطانية التي تحاول اقتحام المدينة . بعد أن أبدى الإمام الشيخ محمد الخالصي معارضة شديدة لمعاهدة الانتداب، حيث انتُخب وخمسة آخرين في لجنة مهمتها ابلاغ رفض العراقيين للمعاهدة إلى الملك فيصل الأول والدول الأجنبية والمنظمات الدولية [35]، اصدرت السلطات البريطانية بالنفي بأمر مباشر من برسي كوكس المندوب السامي البريطاني (1920–1923) في 28 آب 1922م إلى الجحاز. وأخذت السلطات البريطانية تعتقل العديد من رجال المدينة الى جزيرة هنجام لموقفهم المذكور في مقاومة القوات البريطانية وتحدي سياستها في المعاهدة البريطانية – العراقية عام 1922[36] .

تعود الاحداث السياسية المذكوره بشكل كبير الى تعرض مدينة بغداد وتحديدا مدينة الكاظمية الى وباء الكوليرا أو الهيضة (أبو زوعة) في تلك الفترة ، وقد اشتق الاسم الشعبي هذا من –الزواع– اي التقيؤ , إذ أن المصاب بهذا المرض يتقيأ فتبدو علامة اصابته به، فصار الناس يموتون بالمئات ولا حتى من يتولى دفنهم.. ويشبر المؤرخ امين المميز في ذكرياته عن احوال بغداد في تلك الفترة ما يلي :

" كانت نسبة وفيات الاطفال فيها تتراوح بين 20% و50%،

وفي بعض المجتمعات الشعبية تصل الى أعلى من ذلك بكثير.

لقد كنا أربعة أطفال لوالدينا، ومات الأخ الأصغر باختلاطات

مرض الحصبة ولما يبلغ الربيع الثالث من عمره، أي أن

النسبة لعائلتنا كانت 25% " .

الخاتمة

وقفت عوامل عديدة ومتداخلة في تاريخ الاوبئة وصيرورة ووجودها في تاريخ العراق واثرها على التطورات السياسية والمجتمع العراقي في حقب مختلفة في التاريخ الاسلامي والوسيط والحديث يقف في مقدمتها ما يلي :

- عاشت المؤسسة الدينية بمذاهبها المختلفة في العصر الوسيط والحديث والمعاصر على مستوى واحد مع بقية المؤسسات الاجتماعية والادراية والصحية في عجزها عن ايجاد الحلول المناسبة للامراض او الاوبئة امام عجز العلم في توفير الدلائل الضرورية، في ظل حكومات سياسية عجزت في التفاعل مع ادارة الاوبئة ، حيث ان المنظومة السياسية التي تدير البلاد سياسياً وادارياً . ولا تتفاعل وتكون على قدر من المسؤولية تفشل وتتعرض تلك الانظمة الى السقوط واحياناً عديدة تكون الضحايا اكثر ما حققته الامراض كما حدث مع نهاية حكم المماليك في العراق في عام 1831.

- يُعد القرن التاسع عشر من اكثر الفترات مأساوية في تاريخ العراق الحديث بسبب تزايد الهجمات الوبائية والتنوع الكبير للأمراض الانتقالية ، وتوطنها والخسائر البشرية الفادحة حتى صنف العراق كأحد مناطق الشرق الأوسط الاكثر وباءا ، وعلى وجه الخصوص الطاعون لاعتبارات جغرافية وطبيعية وإجتماعية.

- كانت الادارة البريطانية هي اول من جاءت بالاجراءات الصحية المضادة للاوبئة استخدام لاهم مقاييس مواجهة الامراض من تلقيح للسكان وتاسيس مراكز صحية بل وتاسيس كلية للطب في بغداد في عشرينيات القرن العشرين وان جاء ذلك خدمة لمصاحها الاستعمارية في البلاد .

قائمة الهوامش والمصادر

1- القران الكريم ، سورة البقرة ، الاية 10

2- القران الكريم ، الاية 10

3- ويكيبديا ، الموسوعة الحرة .

4- معجم اللغة العربية المعاصرة ، موقع اللغة العربية المعاصرة الكتروني

5- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، 1379هـ/1960م

8- ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن ، ت 310، دار الكتب العلمية ، بيروت .

6- أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية والطبية في القرن الأول الهجري (عرض ودراسة) الجامعة الشارقة ،الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، 1432هـ / 2010-2011م

7- نقلا عن . شعيب حاج ، الاويئة والامراض في زمن النبوة تعاليم المنهج الاسلامي في مجابهة الفيروسات

، مؤتمر الاوبئة عبر التاريخ ، فسم التاريخ والاثار ، جامعة الكويت ، 20 نيسان 2020 .

8- د. محمد يسري ، الطاعون في المخيلة الاسلامية المذهبية عرض وتحليل ، مؤتمر الاوبئة عبر التاريخ ، فسم التاريخ والاثار ، جامعة الكويت ، 20 نيسان 2020

9- للمزيد من التفاصيل ينظر . محمد باقر المجلسي ، بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، بيروت ، 1983.

10- للمزيد من التفاصيل ينظر . ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن ، ت 310، دار الكتب العلمية ، بيروت .

11- للمزيد من التفاصيل ينظر ابن حجر العسقلاني . بذل الماعون في فضل الطاعون.

12- عبد القدوس الهاشمي ، سرّع بعضها بفتوح الإسلام وسقوط الدولة الأموية.. الطواعين والأوبئة في التاريخ الإسلامي، الجزيرة نت ، 2020/3/31

13- المصدر نفسه .

14- ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن ، ت 310، دار الكتب العلمية ، بيروت

15- د. قاسم الجميلي ، تاريخ العراق الوبائي في العهد العثماني الأخير 1850- 1918، 2019، ص34

16- عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوُد باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ،القاهرة ، 1978 ص54

17- علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج 2، دار الراشد ، بيروت – لبنان ، ص 90.

18-عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص 39.

19- د. قاسم الجميلي ، المصدر السابق ، ص 33.

20- يوسف عزالدين ، داود باشا ونهاية المماليك فى العراق ، دار البصرى ، بغداد، 1967

21- المصدر نفسه ، ص76

22- علي كامل حمزة السرحان ، الامراض والاوبئة التي اجتاحت العراق في العهد العثماني وطرق الوقاية منها ، مجلة كلية القادسية للاداب ، المجلد 15 ، العدد4 ، 2015 ، ص 303-302 .

23- المصدر نفسه ، ص 304.

24- حميد أحمد التميمي، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني 1914-1921، بغداد، 1979، ص392-404

25- ابراهيم خليل احمد ، الامراض والاوبئة وتاثيرها في المجتمع الموصلي خلال العصور الحديثة ، مجلة

جامعة الموصل ، العد 9، 1990 . ص44.

26 –. عبد الرزاق الحسني، تاريخ الاحزاب السياسة العراقية، بيروت،1983.ص77

27– تاريخ العراق السياسي الحديث، ج1، ط2، بغداد،1989.ص92

28– برسي كوكس، هنري دوبس، تكوين الحكم الوطني في العراق، صفحتان خطيرتان، ترجمة بشير فرجو، الموصل،1951.ص65

29– المس بل ، فصول من تاريخ العراق القريب ، نرجمة جعفر الخياط ، بغداد ، 1949، ص 66

30– المر هولدين، ثورة العراق 1920، ترجمة: فؤاد حميل، بغداد، 1965 31–

31– نفلا عن . المس بل ،المصدر السابق ، ص 58 .

32– المصدر تفسه ، ص 343 .

33– المصدر تفسه ، ص 344 .

34– عبد الرزاق الحسني ، تاريخ العراق السياسي الحديث ، ج ١ ، ط ٧ ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص 192.

35– علي الوردي ، المصدر السابق ،ج 6، ص 107–110.

36–المصدر نفسه ، ص 141–142.

37– امين المميز ، بغداد كما عرفتها ، بغداد ، 1985